أدب الإسراء وبلاغته بين الماضي والحاضر

د. صديق عبد الرحمن إبراهيم موسى

أستاذ مشارك - قسم الأدب والنقد والبلاغة- كلية اللغة العربية
جامعة القرآن الكريم والعلوم الاسلامية

المستخلص:

تناول البحث أدب الإسراء وبلاغته بين الماضي والحاضر. أتت أهمية البحث في أعقاب التصديق المادي الذي أيَّد القرآن الكريم وسنة النبي محمد صلي الله عليه وسلم، فيما يتعلق بأمر الإعجاز من أمر غزو الفضاء دون عناء، والضرب في الآفاق، وجوب أطراف الدنيا في وقت وجيز. هدف البحث إلى إبراز الإسراء كلون من ألوان الأدب العربي الذي تعاملت معه البيئة العربية بطريقة محدودة مع عظمه وثراءه بمعاني والوان البلاغة التي سطرها الشعر العربي وأيدها النثر. انتهجالمنهج الاستقرائي والوصفي التحليلي. توصل البحث في خاتمته لعدة نتائج منها؛ أدب الإسراء معجزة أعيت العالم بمادياتها المعنوية والمحسوسة ولا سبيل غير التصديق بها والانقياد إليها، وحمل ديوان العرب من أشعارهم معني الإسراء والمعراج مجازا وحقيقة، وأثبت العلم بمخترعاته الحديثة صدق الإسراء، بعد أن تجاوز حدود الزمان والمكان. وأوصى البحث في ختامه بعدة توصيات منها؛إلقاء نظرات فاحصة لأدب الإسراء لاستنتاج المزيد من المعجزات المادية والمعنوية، والاعتداد بقصة الإسراء في إثبات نبوة نبينا محمد صلي الله عليه وسلم من اختصار المسافات وطي الأبعاد، والاهتمام بالإسراء تمشيا مع التقدم العلمي في التواصل برا وبحرا وجوا مما جعل العالم قرية واحدة.

الكلمات المفتاحية: أدب، الإسراء، المعراج، ديوان العرب.

The Isrra rhetorical literature in Foretime and Present

Dr.Sedieq Abdul Rahman Ibrahim Musa/ Co-professor

Abstract

The research dealt with the literature of the Isra and its eloquence between the past and the present. The importance of the research came in the wake of the material ratification that supported the Holy Qur'an and the Sunnah of the Prophet Muhammad, may God's prayers and peace be upon him, with regard to the miraculous command of conquering space without trouble, hitting the horizons, and the necessity of the ends of the world in a short time. The aim of the research is to highlight the Isra as a color of Arabic literature, which the Arab environment dealt with in a limited way with its greatness and its richness in meanings and colors of rhetoric written by Arabic poetry and supported by prose. He adopted the inductive and descriptive analytical approach. In its conclusion, the research reached several results, including; The literature of the Night Journey is a miracle that the world has become fascinated with its material and tangible, and there is no way but to believe in it and submit to it. Finally, the research recommended several recommendations, including; Taking close look at the literature of the Night Journey to deduce more material and moral miracles, and relying on the story of the Night Journey to prove the prophecy of our Prophet Muhammad, may God's prayers and peace be upon him, from shortening distances and folding dimensions, and paying attention to the Night Journey in line with scientific progress in communication by land, sea and air, which made the world one village.

Keywords: literature, Al-Israa, Al-Miraj, Diwan Al-Arab.

المقدمة:

إن أدب الإسراء من عجائبصنع الله،ومن أكبر المعجزات التي طرأت علي أهل الأرض، ومن أعظم ما أثر علي العرب الجاهليين عندما بدأت رسالة الإسلام، إنأدب الإسراء كان خطابااللعقل البشري في ذلك الوقت، في زمن تفتحت فيه الأذهان نحو استيعاب الآداب العربيةالتي انتزعت السيادة المجتمعية في بيئة أصبح اللسان رائدها الأول،لقد كان الإسراء عملا حسيا وقعفي ساعات معدودة من الليل، ولكنما ذاع من خبره جعل من السموات والأرض مسرحالمعانيه التي تجاوزت حدود الزمان والمكان، فتعدت إلى المستقبل بعد ذهابها إلى ما وراء التاريخ، فاستوعبت أقصي ما جادت به الفطرة لدي العربتعاطيا مع الحدث الذي خلَّف وراءه بونا شاسعا من المفارقات

العقلية بالنظر إلى محدودية ما كانت تتعامل معه النفس البشرية يومها عن مدلول الإسراء.

لقد أملى هذا الإعجاز ضرورة ملحة لتوفيرالتفسير الموضوعي لتلك الظاهرة التي أضفت لونا جديدا للوجدان الذي قام بدوره ببث روح التنافس في أروغةاللغة العربية بمجالاتها المتعددة،مما مهد لاستدعاء معاييرنوعية مضافة إلى مدلولات المفهوم السائد من معاني الإسراء ومشتقاته اللغوية، فاضطربتالمقاييسالأدبية المتعارف عليها، وبدت الحاجة لمقابلة بعضها ببعضفتولد أدب طارئ بلون آخروهو الأدب المقارن، لقد اتقدت نار هذا النوع الأدبي الذي استفرغ وقتا وأنتج أدباتميز شعره بطعم المعاني ولون البلاغة ورائحة النقد، ومازالت تلك الجذوة حية ومتقدةلم يخمدها مر الأيام وتقادم الأزمان، وذلك تحقيقا لمعني الإعجازالذي جاء به القرآن الكريم من معاني أدبية للإسراء.

إن ظاهرة الإسراء ما زالت تتحقق يوما بعد يوم مع تقادم التاريخ وما يشهده العصر الحاضر من تقدم مهول في جانب العلوم التقنية التي حولت الفضاء إلى مسرح أدبي لمعاني الإسراء،في مشهد إعجازي تقف أمامه معاني اللغة العربية عاجزة عن التعبير عن جمال ذلك المضمون الذي تضافرت فيه جميع معايير اللغة من أدب ونقد وبلاغة، فلقد قامت الأشعار العربية شاهدا علي ذلك الموكبالأدبي إلى جانب النثر المعبر عن روعة الموقف، وفوق ذلك قامت آيات الله من القرآن تظلل جميع تلك المعاني، وتمدها بسحر البيان، ومن أجل ذلك يأتي هذا البحث ليقف علي أدب الإسراء، كأدب عربي عالمي،مسترشدين في ذلك بأشعار العرب قديما وحديثا، مقارنين بالظواهر الحسية والمادية، ولقد قسمت البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة ونتائج وزيلته بالمصادر والمراجع، وانتهجت فيه نهج الإستقراء والبحث والتحليل، وجاء المبحث الأول بعنوان:الإسراء في القرآن الكريم والسنة النبوية، والمبحث الثاني بعنوان: الإسراء في الشعر الجاهلي وصوره الفنية.

الإسراء في القرآن الكريم والسنة النبوية:

إن القرآن الكريم جاء بما كل هو معجز وخارق، وكل ذلك تأييدا لحجة نبينا محمد صلي الله عليه مسلم، وتثبيتا له أمام براهين أعداء الإسلام الذين يشكلون كتلة واحدة تشمل كل معارض، وذلك لأن الإسلام رسالة شاملة، قال الله تعالي: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[1]، وهذا يعني أن القرآن الكريم أدب جديد في وجاهة كل الآداب الموجودة في الدنيا، ومن هنا اكتسبت الآداب يومها وإلي يومنا هذا سمة المقارنة مع القرآن، إذ أنها كانت وما زالت تتكيف مع القرآن الكريم قربا وبعدا، كلما قرأت سورة أو تليت آية لاحتمالها من وجوه الإعجاز والتحدي الكثير المثير.

نحن في هذه الدراسة بصدد الوقوف علي معجزة هي من أكبر التحديات التي واجهت العرب وبهتتهم، بعد أن ظنوا أنهم أقاموا الحجة والبرهان علي رسول الله وذلك بقوله بما لا يعقلون وإتيانه بما لا يصدقون، وفعله ما لا يقدرون لأن الله أعجزهم عقليا وماديا فأقاموا المقارنات وعقدوا الموازنات، ووقفوا موقف الناقد الذي يبين صحيح القول من رديئه في سبيل استبانة الطريق فبائت مقارناتهم النقدية بالفشل أمام الإسراء، قال الله تعالي: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[2]، قال إبن كثير: يمجد الله تعالى نفسه ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره (الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ) يعني محمدًا، صلوات الله وسلامه عليه (لَيْلا) أي في جنح الليل (مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) بمكة (إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) وهو بيت المقدس الذي هو إيلياء، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هنالك كلهم، فَأَمّهم في مَحِلّتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، قال تعالي(والليل إذا يسر)(قال البغوي أي إذا سار وذهب[3].

إن ما حدث لرسول الله صلي الله عليه وسلم ما لا تعرفه العرب ولا غيرهم في تاريخ البشرية، فما هي الآليات المستعملة في تلك المعجزة، يقول عَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أُتِيَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِالْبُرَاقِ وَهِيَ الدّابّةُ الّتِي كَانَتْ تُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ تَضَعُ حَافِرَهَا فِي مُنْتَهَى طَرْفِهَا فَحُمِلَ عَلَيْهَا، ثُمّ خَرَجَ بِهِ صَاحِبُهُ يَرَى الْآيَاتِ فِيمَا بَيْنَ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتّى انْتَهَى إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَوَجَدَ فِيهِ إبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ وَمُوسَى وَعِيسَى فِي نَفَرٍ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ جُمِعُوا لَهُ فَصَلّى بِهِمْ، ثُمّ أُتِيَ بِثَلَاثَةِ آنِيَةٍ إنَاءٌ فِيهِ لَبَنٌ وَإِنَاءٌ فِيهِ خَمْرٌ وَإِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، (قَالَ) فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ حِينَ عُرِضَتْ عَلَيّ إنْ أَخَذَ الْمَاءَ غَرِقَ وَغَرِقَتْ أُمّتُهُ وَإِنْ أَخَذَ الْخَمْرَ غَوَى وَغَوَتْ أُمّتُهُ وَإِنْ أَخَذَ اللّبَنَ هُدِيَ وَهُدِيَتْ أُمّتُهُ، قَالَ فَأَخَذْت إنَاءَ اللّبَنِ فَشَرِبْت مِنْهُ فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السّلَامُ: هُدِيت وَهُدِيَتْ أُمّتُك يَا مُحَمّدُ.[4]

إن الإسراء الذي حدث لنبينا محمد ليس الحادثة الأولي من نوعها علي وجه الأرض فقد وقع هذا الأمر لمن سبقه من الأنبياء، جاء في كتاب مناظرة بين الإسلام والنصرانية: ولا يحق لأحد من النصارى أن ينكر إسراء النبي ومعراجه لأن مثله ثابت في كتبهم لإيلياء وغيره ففي العهد القديم: (وكان عمد إصعاد الرب إيلياء في العاصفة إلى السماء أن إيلياء واليشع ذهبا من الجلجال (سفر الملوك الثاني 2:1). (وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار فصلت بينهما فصعد إيلياء في العاصفة إلى السماء) سفر الملوك الثاني.[5]

التراث القديم:

وبالعود إلى قصة الإسراء نجد أن حسن الطوية وقوة التوحيد تظهر بجلاء عند أبي بكر الصديق الذي ذهبت إليه سادات العرب في ساعة الصفر لتحول بينه وبين صاحبه في الجاهلية والإسلاممحمد صلي الله غليه وسلم، واستخدمت العرب مع أبي بكر أسلوب التخذيل، واستخدم معهم أسلوب التحقير (إنكم تكذبون عليه) ثم بعد أن أذري بهم استخدم اسلوب التحقيق والتصديق (والله لئن كان قاله لقد صدق)، من هذا الحوار تبدو مسافات وأبعاد أدبية، وهذه الفجوات لها منشأ وأسباب، أما منشؤها فهو التراث الموروث من أيام العرب في الجاهلية، وأما أسبابها هو التراث الديني القديم المتجدد الذي نزل به الوحي علي رسول الله وهو القرآن الكريم.

ظلال التلفزيون:

إن إجلاء المولى عز وجل لبيت المقدس ورفعه لنبيه محمد صلي الله عليه وسلم وهو بالبيت الحرام في قلب مكة المكرمة، ليصفه للمكذبين ممن ارتد عن الإسلام ولمن لم يسلم

بعد،إنها لمعجزة من معجزات القرآن الكريم، نعم إنها قدرة الله التي مازالت تصدق من ذلك الزمان وحتي يومنا هذا وستظل صادقة فهي ظلال التلفزيون، فبالمقارنة اليسيرة تحملنا الأقمار الصناعيةإلي التحليق حول بيت المقدس في فلسطين وذلك عبر القنوات التلفزيونية،ويستطيع كل واحد منا أن يصفه مصداقا لما جاء به نبينا الكريم، إن ما كذبت به العرب بحسب عقولها في ذلك الزمان اصبح اليوم في كل بيت متاحا للجميع، فلقد غزت الفضائيات أنحاء المعمورةحتي أصبحت مكة المكرمة مسرح العمليات ومهد العرب يومها، أصبحت اليوم تعج بالتقنيات العلمية (التكنولوجيا)، فإن قنواتالبث التلفزيونيتنقل للعالم مشاهد بيت المقدس بانتظامحتى أصبح في كل بيت بل في كل مكان من بقاع الأرض، كما أن جميع الصلوات تنقل لجميع أنحاء العالم من مكة المكرمة بانتظام وهناك قناة خاصة بالبيت الحرام في مكة،علما بأن المسافة بين مكة وإيليا (بيت المقدس) تقدَّر بحوالي 1250كيلو متر تقريبا.

مركبة الأنبياء:

إن البراغ وهي مركبة الأنبياء لم يتصورها العرب بالمقارنة مع ما عندهم من ماديات إذ لا يعرفون حيوانا يطير أو يقطع مئات الأميال ذهابا وإيابا في ليلة واحدة، فكان ذلك الطراز من نوع الإيرباص (AIR BUS) أو البوينج (BOUNEG) أو قل إنها طائرة نفاثة، إن ركائب العرب لا تقارن في سرعتها بالبراغ ولا في هيئتها ومظهرها، لقد ذكر الشعراء الركائب في أشعارهم وتغنوا بها كغيرها من مظاهر حياتهم الحيوية، فهي مطايا العرب التقليدية في ذلك الزمان، والتي كانت تستخدم في الارتحال، وكانت الرحلة عند العرب لها أدب خاص فرض نفسه علي شعراء الجاهلية وترك بصمات واضحة في آدابهم فوثقت له الأيام علي مر السنين، وما زالت ذكري تلك الأيام تثب إلى أذهان القراء بمجرد الوقوف علي أشعار العرب، إذ أن مفتتح قصائد العرب يبدأ بذكر الأطلال وهي آثار الديار، ولقد استخدمت العرب الأطلال والارتحال معا في أشعارها وذكر الأطلال أحد موضوعات الشعر العربي، ومن ذلك قول مهلهل بن ربيعة:

هل عرفت الغداة من أطلال رهن ريحوديمة مهطال

يستبين الحليم فيها رسوم ادارسات كصنعة العمال

قدرآها وأهلها أهل صدق لا يريدون نية الارتحال[6]

فهذه الأبيات على قلتها نجد أن الشاعر قد جمع فيها بين عدة مظاهر للشعر عند العرب وهي الأطلال والرياح والديمة والهطول والرسوم الدوارس والارتحال، وهذا أمر لا يغيب عن المهلهل بن ربيعة وهو من فحول الشعراء في الجاهلية فلذا كانت أبياته توثيقا لا ريب فيه لحياة عرب البادية في الجاهلية، فالحل والارتحال بليل أو نهار من موثوق فعالهم ومن أرجي ما تنطوي عليه سرائرهم التي جبلت علي حب التنقل والأسفار.

الإسراء في الشعر الجاهلي وصوره الفنية:

لقد عرفت العرب الإسراء ليلا مع طيف الخيال والأحلام في قطع المسافات الافتراضية فيما يتصوره البدوي من تباريح هوي المحبوب في صحراء متباعدة الأطراف رمالها ممتدة علي آفاق

مرمي الأبصار في البيئة الجاهلية التي تغنت فيها الأعراب بالمستحيل من نبع الخيال، وأنزلت فيها المعنوي منزلة الحسي الملموس وجعلته أمرا ماديا قد فرض نفسه علي خواطر الشعراء، فترجموه إلى الواقع المعاش في صور بلاغية أدبية أقنع بها الشاعر نفسه وتغني بها بألحان تسلي النفس عن أشجانها، فأنظر إلى الشاعر الجاهلي كيف استخدم كلمة الإسراء لمعالجة الأشواق في نفسه، فهاهو المرقش الأكبر يقول:

رى لَيْلاً خَيالٌ مِنْ سُلَيْمى
فأَرَّقَني وأصْحابي هُجُودُ
فَبِتُّ أُدِيرُ أَمْرِي كلَّ حالٍ
وأَرْقُبُ أَهْلَها وهُمُ بعيدُ
عَلى أَنْ قَدْ سَما طَرْفِي لِنارٍ
يُشَبُّ لها بِذِي الأَرْطى وَقُودُ
حَوالَيْها مَهاً جُمُّ التَّراقي
وأَرْآمٌ وغِزْلانٌ رُقُودُ
نَواعِمُ لا تُعالِجُ بُؤْسَ عَيْشٍ
أَوانِسُ لا تُراحُ وَلا تَرُودُ
يَزُحْنَ مَعاً بِطاءَ المَشْيِ بُدّاً
عليهنَّ المَجاسِدُ والبُرُودُ
سَكَنَّ ببلْدَةٍ وسَكَنْتُ أُخرى
وقُطِّعَتِ المواثِقُ والعُهُودُ
فَما بالي أَفِي ويُخانُ عَهْدِي
وما بالي أُصادُ وَلا أَصِيدُ
ورُبَّ أَسِيلةِ الخَدَّيْنَ بِكْرٍ
مُنَعَّمَةٍ لها فَرْعٌ وجِيدُ
وذُو أُشُرٍ شَتِيتُ النَّبْتِ عَذْبٌ
نَقِيُّ اللَّوْنِ بَرَّاقٌ بَرُودُ
لَهَوْتُ بها زَماناً مِن شَبابي
وزارَتْها النَّجائِبُ والقَصِيدُ
أُناسٌ كلَّما أَخْلَقْتُ وَصْلاً
عَنانِي منهُمُ وَصْلٌ جَدِيدُ [7]

نعم إن هذا الشاعر عاش في الجاهلية واستخدم كلمة الإسراء وهي السير ليلا فأبيات القصيدة ناطقة بشرحها فهو يستخدم السريان ليلا ثم يؤكد ذلك بهجود أصحابه أي نومهم، ثم يصور لنا مشهدا آخر من مشاهد الجاهلية وهو منظر النار وهي تتقد ليلا وتتراءى من بعيد في

مظهر فريد من مظاهر المروءة والكرم، والذي يدل بدوره علي الشجاعة، ثم يذكر المحبوبة ورغد عيشها ومنزلتها بين قريناتها وجميعهن يرفلن في دعة من ترف الحياة في كنف المجد والرخاء، ثم يذكر بعد ذلك فراقه لهن (سكن ببلدة وسكنت أخري وقطعت المواثق والعهود) وإن هذا الفراق قد ألهب في نفسه نارا تؤججها الذكري من أيام شبابه ولهوه في ظل تجدد الفراق والابتعاد عن المحبوبة، ولذلك اختار الشاعر المجاز اللغوي الذي جاء في صورة الاستعارة، عندما قال (سري ليلا خيال من سليمي) فالشاعر شبه المحبوبة وهيئتها بالخيال ولكنه حذف لفظ المحبوبة وجاء بلازمة من لوازم الإنسان وهي السريان بمعني السير علي سبيل الاستعارة التصريحية وهي من صور البلاغة العربية التي أولعت بها العرب.

الإسراء في المحسوسات المادية لدي شعراء الجاهلية وصوره البلاغية:

لقد رأينا أن استخدام السريان جاء ليدل علي المحسوس المعنوي فيما ذكرنا من أشعار الجاهلية، ولكن تعبير الإسراء لم يكن مقصورا علي الحس المعنوي فحسب، بل أمتد عبر خزانة الأدب ليطال المحسوسات المادية ففيما مضي من العصر الجاهلي نجد كلمة السريان ومعانيها المتعددة تستعمل للسحب والأمطار التي توافي بالليل، قال النابغة الزبياني:

رتْ عليه ، من الجوزاءِ ، سارية ٌ
تُزجي الشَّمالُ عليهِ جامِدَ البَرَدِ [8]

فهذا النابغة الزبياني يستخدم كلمة السريان ومشتقاتها عندما قال: سرت عليه من الجوزاء سارية وهو يقصد بها السحابة التي تزجي أي تسوق البرد وهو الماء أو حبيبات الماء الجامدة وتمطر ليلا، قال الله تعالي: (ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فتري الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار)[9] فالنابغة استخدم معاني حفظها القرآن بعد ذلك بنفس المدلول لأنها كانت موجودة بصورتها التطبيقية في البيئة العربية، وفوق ذلك يشتمل قول النابغة علي الاستخدام البلاغي لكلمة الإسراء الذي جاء بوجه الاستعارة التصريحية، إذ أن السريان بمعني السير يستخدم للكائنات الحية، وفي الآية السابقة (أن الله يزجي سحابا) أي يسوق وكلمة يسوق تأتي بفعل فاعل ويسير أو يسري تأتي من السارية أي السحابة نفسها أي بفعلها، وهنا نجد أن الشاعر شبه الحيوان الذي يسير علي قدميه بالسحابة ثم حذف المشبه وهو الحيوان وأشار إليه بلازمة من لوازمه وهي الإسراء بينما صرح بلفظ المشبه به وهو السحابة (سارية) في (سرت عليه) وذلك علي سبيل الاستعارة التصريحية، قال الشماخ:

منصوب سارية أطاع جهامها نكباء تمر يمزنها أوداقا
باتا إلى حقفته بعلي هما نكباء تبجس وابل اغيداقا(10)

الشماخ شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وهو يستخدم كلمة سارية في المعني الحسي الملموس، ففي هذين البيتين عدة كلمات جميعها تعبر عن محسوسات مشاهدة بالعين المجردة فهو يقول: سارية، جهامها، مزنها، أوداقها، فجاء بكلمة سارية وهو يعني بها السحاب الممطر

ليلا، ثم جاء بمترادفات ذلك المعني، جهامها مزنها أوداقها، وجاء الإسراء بالمعني الحقيقي، وهذا المعني الحقيقي يضاف إلى المعاني المجازيةمنالاستعارات التصريحية التي مرت معنا في شعر المرقش الأكبر ليُعلم أن معني الإسراء المحسوس جاء حقيقة ومجازا. ونجد الشاعر الجاهلي المخضرم لبيد بن ربيعة العامري يستخدم كلمة سارية في المعني الحسي الملموس والسارية هي السحابة التي تمطر بالليل وفي ذلك يقول لبيد في معلقته:

مِمَن كُلِّ سارِيَةٍ وَغادٍ مُدجِنٍ
وَعَشِيَّةٍ مُتَجاوِبٍ إِرزامُها
وَجَلا السُيولُ عَنِ الطُلولِ كَأَنَّها
زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أَقلامُها
شاقَتكَ ظُعنُ الحَيِّ حينَ تَحَمَّلوا
تَكَنَّسوا قُطُناً تَصِرُّ خِيامُها
فَوَقَفتُ أَسأَلُها وَكَيفَ سُؤالُنا
صُمّاً خَوالِدَ ما يُبينُ كَلامُها
حُفِزَت وَزايَلَها السَرابُ كَأَنَّها
أَجزاعُ بيشَةَ أَثلُها وَرُضامُها
بَل ما تَذَكَّرُ مِن نَوارَ وَقَد نَأَت
وَتَقَطَّعَت أَسبابُها وَرِمامُها
مُرِيَّةٌ حَلَّت بِفَيدِ وَجاوَرَت
أَهلَ الحِجازِ فَأَينَ مِنكَ مَرامُها
بِمَشارِقِ الجَبَلَينِ أَو بِمُحَجَّرٍ
فَتَضَمَّنَتها فَردَةٌ فَرُخامُها
باتَت وَأَسبَلَ واكِفٌ مِن ديمَةٍ
يُروي الخَمائِلَ دائِماً تَسجامُها
حَتّى إِذا اِنحَسَرَ الظَلامُ وَأَسفَرَت
بَكَرَت تَزُلُّ عَنِ الثَرى أَزلامُها [11]

نعم لقد استخدم لبيد لفظة (سارية) في مذهبته الشهيرة ويعني بالسارية السحابة التي تمطر ليلا ولذا قرنها بالعشية في قوله وعشية متجاوب إرزامها، كذلك وجاءت معاني أخري تناول فيها الشاعر السيول وفعل الأمطار وآثار السحب، والظعن والارتحالوالانتقال عبر منازل الصحراء وما فيها من شواهد الطبيعة، مثل وادي بيشة ومواقع الأثل والرضام، ثم تذكر المحبوبة وقد نأت وتقطعت أسبابها وهي قد حلت بفيد من إقليم الحجاز تمر عبر الجبال ومشارقها، ومحجر، وفردة، والرخام، وجميعها مواقع وأمكنة في طريق المحبوبة، ثم باتت وقد أصابها وابل من المطر من ديمة أو سحابة روت الخمائل وما اخضر من النبات فتسجامها أي نزولها وهطولها لا ينقطع عن تلك الأماكن الخضراء، حتي إذا تبدد الظلام وجاء نور الفجر وعم الضياء واتضحت الرؤيا

استأنفت المحبوبة رحلتها علي ظهر ناقتها ميممة شطر المرتحل، انظر إلى هذه اللوحة الفنية من البلاغة العربية وما اشتملت عليه من جمال اللفظ والمعني وقوة الجرس في لحن القافية وايقاع البحر الكامل الذي بسط مصراعيه ليحتضن كل تلك المعاني بسهولة وانسجام.

الإسراء عند صعاليك العرب:

تقد استخدم الشعراء الصغاليك لفظ الإسراء في الجاهلية وفيما يلي نقف عند استخدام هذا المعني لدي العرب في الجاهلية، ونقف عند قصيدة تأبط شراء يا عيد والتي يقول فيها:

يا عيد ما لك من شوق وإيراق	ومر طيف على الأهوال طراق
يسري على الأين والحيات محتفيا	نفسي فداؤك من سار على ساق
نجوت منها نجائي من بجيلة	إذ ألقيت ليلة خبت الرهط أرواقي
ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم	بالعيكتين لدى معدى ابن براق
لا شيء أسرع مني ليس ذا عذر	وذا جناح بجنب الريد خفاق
لكنما عويلي إن كنت ذا عول	على بصير بكسب الحمد سباق
سباق غايات مجد في عشيرته	مرجع الصوت هدا بين أرفاق
حمال ألوية شهاد أندية	قوال محكمة جواب آفاق
يقول أهلكت مالا لو قنعت به	من ثوب صدق ومن بز وأعلاق
عاذلتي إن بعض اللوم معنفة	وهل متاع وإن أبقيته باق
أن يسأل القوم عني أهل معرفة	فلا يخبرهم عن ثابت لاق
سدد خلالك من مال تجمعهحتى	تلاقي الذي كل امرىء لاق
لتقرعن علي السن من ندم إذا	تذكرت يوما بعض أخلاقي[12]

جاء في الأغاني أن تأبط شرا وعمرو بن براق والشنفري والسليك بن السلكة غزوا بجيلة فلم يظفروا منهم بغرة وثاروا إليهم فأسروا عمرا وكتفوه، وأفلتهم الآخران عدوا فلم يقدروا عليهما، فلما علما أن ابن براق قد أسر قال تأبط شرا لصاحبه امض فكن قريبا من عمرو فإني سأتراءى لهم وأطمعهم في نفسي حتى يتباعدوا عنه فإذا فعلوا ذلك فحل كتافه وانجوا، ففعل ما أمره به وأقبل تأبط شرا حتى تراءى لبجيلة فلما رأوه طمعوا فيه فطلبوه وجعل يطمعهم في نفسه ويعدو عدوا خفيفا يقرب فيه، ويسألهم تخفيفا لفدية وإعطاءه الأمان حتى يستأسر لهم وهم يجيبونه إلى ذلك ويطلبونه، وهو يحضر إحضارا خفيفا ولا يتباعد حتى علا تلعة أشرف منها على صاحبيه فإذا هما قد نجوا ففطنت لهما بجيلة فألحقتهما طلبا ففاتاهم، فقال يا معشر بجيلة أأعجبكم عدو ابن براق اليوم والله لأعدون لكم عدوا أنسيكم به عدوه، ثم عدا عدوا شديدا ومضى وذلك قوله.[13]والصعاليك هم طائفة من العرب نبذتهم قبائلهم لسوء فعالهم وخروجهم عن قانون القبيلة، جاء في كتاب العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف: الصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه علي أعباء الحياة ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة، فقد أخذت تدل علي من يتجردون للغارات وقطع الطرق.[14]

أدب بيئة الصعاليك:

لقد رأينا أن الصعاليك من العرب هم الذين تكونوا تكوينا سياسيا نتيجة التمايز الاجتماعي الذي فرضته عليهم ظروف الحياة الجاهلية في بيئة صحراوية أشد ما يكون الناس فيها بحاجة إلى التراحم والتكافل، ولكن بؤس العيش وشظف الحياة حدا بالصعاليك لاتخاذ موقف خاص يعبر عن كيانهم، فكانوا يمثلون الصوت الشجاع والحي للثورة علي الواقع الاجتماعي ويعبرون عن رفض المضطهدين للاضطهاد، كما كانوا يعبرون عن ثورة المسحوقين اجتماعيا واقتصاديا وعرقيا علي الطبقة المستبدة المتحكمة في الرزق والدم، كما كانت لهم مواقف ثورية ثابتة ضد سطوة التقاليد والتحكم القبلي ولقد أعلن أولئك الصعاليك تمردهم علي الوضع الاقتصادي والطبقي والعنصري المسيطر علي القبيلة، علي الرقم من أن القبيلة في ذلك الوقت كانت تمثل الحماية للإنسان في صحراء قاسية ومخيفة بصفتها القانون الصلب الذي لا يمكن أن يتعدى عليه أحد أو يتجرأ علي التمرد والعصيان ضده، ومع ذلك أصر الصعاليك علي مواقفهم ومبادئهم تجاه القبيلة، فأعلنوا التمرد عليها فطردوا منها، فجعلوا من الصحراء منفى اختياريا يشنون منه غاراتهم علي المستبدين من العرب، ونجد الصعاليك في هذه الأثناء يتصفون بصفات الشجاعة والصبر والكرم والقوة، واغتنام الغنائم وتقسيمها علي الفقراء والمحتاجين لمساعدتهم، ويفتخرون بتلك الصفات الحميدة في أشعارهم متمسكين بثقافتهم في ذلك، ومن تلك الأشعار القصيدة آنفة الذكر (يا عيد) لتأبط شراو هي من عيون الشعر العربي التي خلدها التاريخ الأدبي، ونحن نقف علي هذه القصيدة لنستقصي أبعاد استخدام الصعاليك في الجاهلية لكلمة الإسراء موضوع دراستنا ولكن من زاوية أخري مختلفة تجسدها بيئة جماعية وهي سبب تأليف القصيدة.

الإسراء في المبادئ والمواقف:

لقد افتتح تأبط شرا قصيدته بما كان يعتاده في حياته من اشتياق وأرق في آن واحد لما يمر به من خواطر مغامرته التي نجا فيها عدوا مع أصحابه، وكان كلما قفا من إرهاقه البدني لاحقه خيال المحنة التي مر بها وهو ما زال يطلب النجاة من الأعداء فخوفه كل الخوف من إذا قفا وقف الأعداء علي راسه وهو نائم وهي الحالقة فيهب مذعورا، ثم يستخدم الشاعر كلمة الإسراء عندما قال سري أي سار ليلا علي الأين وهي نوع من حيات الصحراء (أو نوع من الشجر الشوكي) ثم ذكر الحيات مرة أخري وهي الضروب الأخرى من الأفاعي، ولم يكن تأبط شرا بمعزل عن حيات الصحراء إذ أن اسمه تأبط شرا جاء من حملة الأفاعي في جراب جعله تحت ابطه ثم سار في صحراءه، ثم قال في قصيدته فداؤك من سار علي ساق ويعني نفسه عندما سري ليلا وهو يطلق ساقيه إلى الريح متحديا بذلك أصحاب السرعة التقليدية في ذلك الزمان من الخيول والطيور، فهو يقول إن نفسه فداء لما يجيش بخاطره من مخاوف وكأنما تلك الأهوال بمثابة دافع معنوي تجعله يضاعف سرعته في العدو، فكلمة السريان جاءت لتعبر عن فعل قام به تأبط شرا وهو ما يجعلنا نحدد طبيعة السريان عند العرب عامة والصعاليك خاصة، فالإسراء لدي الصعاليك مقيد بمبادئ ومواقف فرضتها عليهم بيئتهم فتفاعلوا معها سلبا وإيجابا.

أعدي حيوان وأسرع طائر:

يذكر الشاعر في بقية الأبيات كيف أنه نجا ليلا وهو يسري عندما ألَّبوا عليه السفاء من القبائل التي أغار عليها فنجا بليل مستخدما مهارته في الهرب وعدته في ذلك ساقيه التين لا يعدلهما بقوائم بعير أو فرس ولا بجناحي طائر، لقد قاس تأبط شرا سرعته لما كان معروفا بالسرعة في زمانه، وأثبتت الدراسات الحديثة اليوم: أن أعدي حيوان يدب علي الأرض هو الفهد الصياد الذي ينتمي إلى فصيلة السنوريات أو القططيات، وتبلغ سرعته نحو 120 كلم في الساعة في أقصى حد لها، أما أسرع طائر في العالم فهو طائر الشاهين الذي ينتمي إلى فصيلة الصقريات وتصل سرعته إلى 200 ميل في الساعة في أقصى حد لها وهو حال انغضاضه علي فريسته أو هربه من عدو.[15]نجد تأبط شرا معتزا بتلك الحيلة الرجولية (الهرب) والتي تكسبه المحامد وتضفي علية حلة الفخار كغيره من شجعان العرب، مفتخرا بفعاله التي ترتقي به إلى غايات المجد رافعا بذلك رأسه وصوته، وكأنه من سادات العرب، خاصة عندما قال:

حمال ألوية شهاد أندية ... قوال محكمة جواب آفاق
لا شيء أسرع مني ليس ذا عذر ... وذا جناح بجنب الريد خفاق
لكنما عويلي إن كنت ذا عول ... على بصير بكسب الحمد سباق
سباق غايات مجد في عشيرته ... مرجع الصوت هدا بين أرفاق
حمال ألوية شهاد أندية ... قوال محكمة جواب آفاق

ثم يستطرد الشاعر قائلا أنه أنفق مالا كثيرا برهانا علي صدقه وأن المال إذا حاول إبقاءه فلا يبقي لأن ذلك ليس من عادته فإن بقي المال فهو ليس بباق، فهو معروف بذلك وإنما المال لقضاء الحاجة وستر الحال حتي يأيي الموت، ولكن الشاعر مع ذلك أرجعنا لما أثبتناه أولا من شعر المفارقات عند العرب واخترنا لذلك تأبط شرا، فانظر إليه بأيِّ قول ختم قصيدته، فنراه يقول مع مدحه لنفسه وارتقائه بها إلى مصاف سادات العرب أن له جوانب مظلمة من حياته فإن بعض أخلاقه تدعو إلى الندم وذلك يعني أنه قد يكون لا عهد له كما هو الحال عند العرب من صون العهود، يقول تأبط:

سدد خلالك من مال تجمعه ... حتى تلاقي الذي كل امرىء لاق
لتقرعن علي السن من ندم ... إذا تذكرت يوما بعض أخلاقي[16]

فهذه القصيدة أخترناها لتمثل لنا موقفا حيا للإسراء بالمعني الحقيقي عند العرب وذلك في مقابلة الاستخدامات الأخرى لكلمة الإسراء والتي جاءت مجازا في صورة الاستعارة التصريحية، أو في صورتها الحقيقية من معانيها الاشتقاقية.

الإسراء في الشعر وصوره الفنية في الإسلام:

الشاعر عبد الله بن المعتز:

نعم لقد رأينا الاستخدام الحسي المادي لكلمة السريان لأكثر من شاعر من شعراء الجاهلية، ولقد ذكرنا أن استعمال نفس الكلمة قد امتد إلى شعراء العصور التالية، ومن اولئك الشاعر ابن

المعتـز الشـاعر العبـاسي في قولـه:

وشربنا ماء سارية في قرارات وغدران
ثم قمنا نحو ملجمة جنة طارت بفتيان
فتلاقينا على قدم بين آجال وصيران[17]

قـال عبداللـه بـن المعتـز وشربنـا مـاء سـارية أي سـحابة تمطـر بالليـل في قـرارات الأماكـن التـي يقـر فيهـا المـاء ويتجمـع، والغـدران أي الـبرك الصغـيرة، ويكـون كل ذلـك بعـد نـزول المطـر وهطولـه، وهـذا الـسري الرفـاء وهـو كذلـك مـن شـعراء العـصر العبـاسي، يقـول:

راحوا رياح اتزجي كل سارية من الندى وغدوا للحلم أطوادا
تناهبوا الفضل دون الناس كلهم فأصبح الناس أعداء وحسادا
لا يبعد الله منكم عصبة فضلت فزادها الفضل إقصاء وإبعادا[18]

ذكـر الشـاعر الريـاح التـي تزجـي أي تسـوق السـحب مـن النـدي أي المطـر وكل هـذه المعـاني منظـورة بالعـين المجـردة، إن لفـظ الإسراء في الأبيـات آنفـة الذكـر جـاء أيضـا بالمعنـي الحقيقـي لأن المقصـود بـه السـحابة كإسـم محـدد.

الشاعر محمود سامي البارودي:

لم يكـن هـذا التعبـير مـن اسـتخدام كلمـة السريـان قـاصرا عـلي بيئـة العـرب في الجاهلية فحسـب بـل امتـد بمعنـاه مـع امتـداد القـرآن الكريـم الـذي أكـد ذلـك في سـورة الإسراء، وفي عصرنـا الحديـث نجـد الشـاعر محمـود سـامي البـارودي قـد أسـتخدم نفـس الكلمـة لنفـس الغـرض الشـعري الـذي جـاء في الشـعر الجاهـلي، ففـي قصيـدة طيـف سـميرة نجـد البـارودي يقـول:

تأوب طيف من سميرة زائر وما الطيف إلا ما تريه الخواطر
طوي سدفة الظلماء والليل ضارب بأرواغه والنجم في الأفق حائر
فيا لك من طيف ألم ودونه محيط من البحر الجنوبي زاخر
تحمل أهوال الظلام مخاطرا وعهدي بمن جادت به لا تخاطر
خماسية لم تدر ما الليل وما السري ولم تنحسر عن صفحتيها الستائر[19]

لقـد صـور لنـا البـارودي تصويـرا دقيقـا لمعنـي الإسراء وهـو مـن شـعراء العـصر الحديـث فقـد وصـف الـسري ومـا يحيـط بـه مـن تصـور أدبي، لأن طيـف أحـلام البـارودي سري ليـلا إلى مـا وراء المحيـط (محيـط مـن البحـر الجنـوبي زاخـر) وهـو أدب فريـد جـاء بـه البـارودي عندمـا وصـف أهـوال الظـلام التـي جـاء فيهـا الطيـف يـسري محمـولا عـلي البحـر ومـا بـه مـن مخـاوف، بعـد أن تخطـي وهـاد البـر مـن الصحـراء الموحشـةخاصة وأن الموصـوف (سـميرة) كانـت خماسـية أي بنـت خمـس سـنين ولا تـدري شـيئا عـن الليـل ولا السريـان، وكلمـة الـسري المسـتعملة في القصيـدة جـاءت بمعنـي الإسراء فهـي مـن مشـتقاته، ولكنهـا لم تحمـل مجـازا لأنهـا اسـتخدمت في معناهـا الحقيقـي، ولكنـا نجـد المجـاز بالمعنـي المطابـق تمامـا في أول أبيـات القصيـدة عندمـا قـال الشـاعر (تـأوب طيـف مـن سـميرة زائـر) فالبـارودي شـبه المحبوبـة وهيئتهـا وصورتهـا بطيـف الخيـال ولكنـه حـذف لفـظ المحبوبـة وجـاء بلازمـة مـن

لـوازم الإنسـان وهـي التـأوب ليـلا بمعنـي الـتردد والرجـوع التـي هـي مـن صفـات الإنسـان عـلي سـبيل الاسـتعارة التصريحيـة، ولكـن البارودياالشـاعر المـصري البـارع فتـح بـاب المعـاني والبيـان عـلي مصراعيـه فتداعـت المعـاني وانهمـرت خواطـره مـع وصـول طيـف ابنتـه سـميرة وذكراهـا إلى خلـده فجـرت عـلي لسـانه الأبيـات التاليـة:

عقيلــة أتــراب توالــين حولهــا ... كــما دار بالبــدر النجــوم الزواهــر
غوافــل لا يعرفــن بــؤس معيشــة ... ولا هــن بالخطــب الملــم شــواعر
هــن كعنقــود الثريــا تألقــت ... كواكبــه في الأفــق فهــن ســوافر

نجـد الشاعراسـتخدم الوصـف في رائعـة لم يجـد الزمـان بمثلهـا في التركيـب والتشـبيه والوصـف الحـسي والمعنـوي، مـع اختيـار الألفـاظ الجزلـة والمعـاني الرصينـة، ليطـرز ثوبـا نـادرا مـن بلاغـة المعـاني والتشـبيه البيـاني، وينقـل لنـا صـورا فنيـة مـن بديـع جـمال بلاغـة العـرب، ونجـد البـارودي قـد نقـل لنـا وصفـا حيـا لمـا كان يـدور في أروغـة البيئـة الصحراويـة الجاهليـة، وذلـك لمـا جـاء بـه مـن تفاصيـل ذكـر محبوبتـه الصغـيرة سـميرة، يقـول البـارودي.

مثلهـا الذكـري لعينـي كأننـي ... إليهـا عـلي بعـد مـن الأرض ناظـر
فـإن تكـن الأيـام فرقـن بيننـا ... فـكل امـرئ يومـا إلى اللـه صائـر

نجـد شـاعر العـصر الحديـث البـارودي ختـم قصيدتـه بمـا تمليـه عليـه عقيدتـه الإسـلامية عندمـا قـال فـكل امـرئ يومـا الي اللـه صائـر، وهـذا تـاج عـلي رأس الأدب الإسـلامي بمثابـة المُلـك الـذي لا يـؤول إلى غـيره ولا يتحـول مـا دامـت السـموات والأرض.

الإسراء في المحسوسات المادية في الشعر الأسلامي وصوره البلاغية:

الشاعر إدريس محمد جماع:

ومـن شـعراء العـصر الحديـث ممـن اسـتعمل هـذه الكلمـة (السريـان) في المعنـي الحـسي المشـاهد الشـاعر السـوداني إدريـس محمـد جـماع في قصيدتـه رحلـة النيـل، عندمـا قـال:

تدافـع النيـل مـن عليـاء ربوتـه ... يحـدو ركاب الليـالي وهـو عجـلان
مـا مـل طـول الـسري يومـا وقـد ... دفنـت عـلي المـدارج ازمـان وازمـان
حيـث الطبيعـة في شرخ الصبـا ... ولهـا مـن المغـاني اتـراب واقـران
وفي حمـي جبـل الرجـاف مختلـب ... للناظريـن وللأهـوال ميـدان
اذا صحـا الجبـل المرهـوب ريـع لـه ... قلـب الـثري وبـدت للذعـر الـوان
فالوحـش مـا بـين مذهـول يصفـده ... يـأس وآخـر يعـدو وهـو حـيران
والنيـل مندفـع كاللحـن ارسـله مـن ... المزامـير احسـاس وجـدان
حتـي إذا ابـصر الخرطـوم موثقـة ... وخالجتـه اهتـزازات واشـجان
وظـل يـضرب في الصحـراء منسربـا ... وحولـه مـن سـكون الرمـل طوفـان
سـار عـلي البيـد لم يأبـه لوحشـتها ... وقـد سـوت تحـت سـتر الليـل أكـوان
والليـل في وحشـة الصحـراء صومعـة ... مهيبـة وتـلال البيـد رهبـان[20]

يصف الشاعر تدفق النيل من أعالي شرق افريقيا وهو يسير في ركب الليالي وهو عجلان ولم يمل طول السري والسري هنا السير ليلا خاصة وأن الشاعر قد ذكر قرائن لفظية ومعاني عريضة تؤيد ذلك عندما قال (يحدو ركاب الليالي وهو عجلان)فالليالي هي التي تختص بالسريان، ثم استمر الشاعر في وصف انسياب النيل في جريانه وهو يمر بالرياض الضاحكة والمغاني الساحرة، حيث الطبيعة ما تزال بكرا بمناظرها الجميلة الخلابة ولها من المروج الخضراء ما لا حصر له.

نعم نجد الشاعر إدريس جماع يصف السريان وصفا ماديا عندما جسَّده بالمعني الحسي للنيل الأبيض في السودان الذي يتحدر من أعالي بحيرة فكتوريا في شرق إفريقيا ويستعد لرحلة عبر الجبال والسدود والغابات والواحات وقد أزمع السفر إلى الخرطوم، جاعلا من الليالي زادا لرحلته فهو يسري بلا كلل ولا ملل، حتي إذا جاء الفجر وعم النهار كان النيل علي موعد مع الطبيعة الخلابة التي ما برح يغازلها بعد عودة الحياة إليها مع عودة الشمس. وبعد ذلك المعنييقف الشاعر جماع واصفا شواهد الطبيعة فيوافينا بمنظر جبل الرجاف وهو جميل بمعني الجمال، وفوق ذلك قد ضم بين حناياه الأهوال والصعاب،وبمجرد أن تدب الحياة نهارا في ذلك الجبل تري الوحوش وهي في حياتها اليومية في غابات كثيفة واقفة تارة وأخري تعدوا وهي حيري، وفي كل ذلك لا يأبه النيل بما حوله وهو مستأنف رحلته وسط ألحان المياه وأصوات الأمواج يحدو به الشوق إلى الخرطوم، فإذا أبصر عاصمة السودان اهتز شوقا وطربا لوصوله الميمون، حتي إذا حيا الخرطوم انبري يضرب في صحراء الشمال منسربا بالليل وحوله من سكون الرمل طوفان. ويؤكد لنا الشاعر مرة أخري سريان النيل ليلا في صحراء السودان الشمالية وهي البيد التي لم يأبه لوحشتها وقد سوت تحت ستر الليل أكوان، ويشبه الليل وهو في وحشته بالصومعة المهيبة المخيفة وهي معبد الرهبان ومن حولها الجلاميد وكثبان الرمال وكأنها رهبان في تلك الصومعة، فالسريان عند الشاعر هنا بمعني السير ويستخدم للكائنات الحية، وهنا نجد أن الشاعر شبه الحيوان الذي يدب أو يسير علي قدميه بالنيل ثم حذف المشبه وهو الحيوان وأشار إليه بلازمة من لوازمه وهي الإسراء بينما صرح بلفظ المشبه به (النيل في الضمير سار) وذلك علي سبيل الاستعارة التصريحية، ونرى الشاعر طوع مزمار الشعر فانقادت له زوارق الألحان عبر نهر النيل العتيق فجاءت ترانيم البلاغة العربية منسجمة مع انسياب المعاني في صور عزبة.

أمير الشعراء أحمدشوقي:

ومن الشعر الحديث نقف عند قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي يا نائح الطلح، والتي استخدم فيها كلمة الإسراء ومشتقاتها، فهذا أمير الشعراء نراه يناهض المستعمر الإنجليزي في بلاده (مصر) رافضا كل أنواع الذل والهوان فكان من منبره الأدبيي خاطب أفراد شعبه لمناهضة الاستعمار شأنه في ذلك شأن الشعراء الصعاليك، فكان شوقي يمثل (الصوت الشجاع والحي للثورة علي الواقع الاجتماعي، ويعبر عن رفض المضطهدين للاضطهاد، كما كان يعبر عن ثورة المسحوقين اجتماعيا واقتصاديا علي الطبقة العليا المتحكمة في الرزق، وله مواقف ثورية ثابتة ضد سطوة الاستبداد والتحكم في السلطة)، لقد حكي أمر شوقي ما حكاه أمر تأبط شرا الذي لاقي الاضطهاد

من السلطة القبلية الحاكمة، فقد عاش شوقي في منفاه الاختياري في أسبانيا (الأندلس) بعد أن فرض علية المستعمر البريطاني الهجرة قسرا إلى خارج موطنه، وفي ذلك ركب شوقي البحر وعبر السويس متوجها إلى شواطئ الأندلس، فنزل في مدينتها الساحلية برشلونة بعد رحلة تجشم فيها السري ليلا عبر أمواج البحر التي كادت أن تقضي على السفينة التي تحمله.

نجد شوقي عندما وطأت قدماه أرض الأندلس وقف علي آدابها وتاريخ العرب والمسلمين وفتوحاتهم البطولية، فوجد السلوان والمواساة في آدابهم خاصة المحنة السياسية والأدبية التي تجرع كأس مرارتها الشاعر والوزير أحمد بن زيدون إلى جانب الشاعر المعتمد بن عباد، وكلاهما عاش وزيرا وحاكما في بلاط المُلك والسلطان، وآل بهما الأمر إلى المنفي، وحكي أمر شوقي أمرهما فشكل حلفا مماثلا من الأدب المشرقي مع الأدب الأندلس عندما تقمص شاعر المشرق بكائية إبن زيدون (أضحي التنائي بديلا من تدانينا) فأفرغ قالبها من محتواه وصب عليه من معاني الكلام من صنعه وحر أدبه ما تكفل التاريخ بصونه، فصنع لونا من الشعر جاء كشعر إبن زيدون.

صوت الأندلس:

نعم لقد وجد شوقي متكأ من مآسي الزمان التي طالت أصحاب الصوت العالي من أدباء الأندلس وحكامها من الحادبين علي أمر بلادهم والقائمين بأمر الشعر حفاظا علي منبر الحق وصوت الحرية، ولا أظن أن حسرة المعتمد بن عباد غائبة عن شوقي، وكيف يغيِّب التاريخ نفسه بعدما سارت الركبان برائية المعتمد فانظر إلى قوله:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في اغمات مأسورا
ترى بناتك بالأطمار جائعة ... يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا ... فردك الدهر منهيا ومأمورا[21]

ولما كان المعتمد حاكما فيما مضي لم يتحسر شوقي كحسرة الحكام ولكنه اختار بكائية إبن زيدون لأنه كان شاعرا ووزيرا ومنزلة شوقي لا تقل عن ذلك، ففتق شوقي عن جمهرة المعاني من خزانة الشرق وصقل بها سيفا أدبيا لا يحمله إلا فارس مغوار فأتعب شوقي بذلك الفرسان من بعده، فهاهو موكب الألحان يتدفق من جديد بثوب أدبي قديم من عهد الأندلس من وراء القرون، ليكون امتدادا لمشاعر أحيتها الأيام يوما بعد يوم علي مر الزمان، فأذاع شوقي:

يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا ... بعد الهدوء وتهمي عن مآقينا
لليل يشهد لم نهتك دياجيه ... علي نيام لم نهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا علي قدم ... قيام ليل الهوي للعهد راعينا
كزفرة في سماء الليل حائرة ... مما نردد فيه حين يضوينا
بالله إن جبت ظلماء العباب ... علي نجائب النور محدودا بجرينا
ويا معطرة الوادي سرت سحرا ... فطاب كل طروح من مرامينا

أجشمت شوك السري حتي أتت لنا ... بالورد كثب وبالربا عناوينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا ... في النائبات فلم يأخذ بأيدينا
نطوي دجاه بجرح من فراقكمو ... يكاد في قلس الأسحار يطوينا
إذا رسي النجم لم ترفأ محاجرنا ... حتي يزول ولم تهدأ تراقينا
بتنا نقاسي الدواهي من كواكبه ... حتي فقدنا بها حسري تقاسينا
ولم ندع لليالي صافينا فدعت ... بأن نقص فقال الدهر آمينا
لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة ... والبر نار وغي والبحر غسلينا[22]

قال شوقي يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا في تأكيد لاستخدام كلمة السري أو الإسراء، فالبرق يسري كالطيف ليلا ولا يخطئ نوره ذو عين تبصر، فساري البرق يحرق أحشاء الشاعر وينزل ماء السحاب كما تهمي وتسيل عين الشاعر من الشوق والفراق تحسرا علي موطنه، وفي الأبيات التي تلت هذا البيت يجسد الشاعر معاني الإسراء ليلا مثل قوله: الليل يشهد، علي نيام، والنجم لم يرنا، قيام ليل الهوي، سماء الليل، ظلماء العباب، نجائب النور، وبعد هذه المعاني التي تدل علي استخدام الشاعر الليل وأسبابه، نجده استخدم كلمة السري مرة أخري عند ما قال: يا معطرة الوادي سرت سحرا، ويعني مصر فكلمة سرت هنا أي وافت ليلا ثم فقال:

أجشمت شوك السري حتي أتت ... لنا بالورد كثبا وبالربا عناوينا

فهو يعني تجشمت أي تحملت الصعاب ومرت علي الشوك الذي لا يطاق وطؤه وهي تسري ليلا ، ثم بعد ذلك يعود الشاعر ليأتي بظرف الإسراء ومترادفاته فنجده يستخدم في بقية الأبيات الكلمات التالية: نطوي دجاه، قلس الأسحار، رسي النجم، من كواكبه، ندع لليالي، ونجد شوقي يجدد هذا المعني بفهمه وذوقه الذي يتناسب مع محنته الحسية التي ترجمها إلى معاني حية تعبر تعبيرا صادقا عن دواخله وتناسبا مع ذلك الإحساس قال شوقي:

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة ... والبر نار وغي والبحر غسلينا[23]

لقد ذكر شوقي ثلاث جمل قلبت الموازين الأدبية فيما مضي من أندلسيته ذائعة الصيت، فبدلا من التشكي وإظهار الضعف وقلة الحيلة والتحسر والشوق إلى الوطن وهو الطابع الدارج للقصيدة، نجد الشاعر أفصح عن جانب آخر لإن تحقق فهو كفيل بصون أماني شوقي وشعبه، ولذا نجده يثب وثبة الأسد الضاري وهو يستعرض خبراته الحربية التي تمكنه من تحويل الجو إلى لهب من الصواعق الحارقة، وكأن شوقي سرب من الطيران الحربي الظافر يغطي فضاء مصر ممسكا بعنان السماء علي كل عدو، أو كأنه نسور من السماء لا تسعها الأرض فهي تتخطف الأعداء عن قهر وسلب، ثم يقول: لو استطعنا لخضنا البر نار وغي، وكأن شوقي جيش في الأرض كاسح ما للعدو منه من مناص، ثم يقول شوقي، لو استطعنالخضنا البحر غسلينا، والغسلين هو طعام أهل النار فلا يكون إلا نارا، ولكنها في البحر تحول الماء إلى براكين من الجحيم الحارق يقضي علي الأخضر واليابس، فما أكثر ما يكون الندم لو تمكن شوقي من إفراغ جام غضبه على أعداء الحرية في مصر لتحقيق السلام.

الخاتمة:

بهذه الدراسة الأدبية يكون قد وقفنا علي معاني كلمة الإسراء من وجوه متعددة لدى شعراء الجاهلية من جهة، وشعراء الإسلام من حملة لواء الشعر العربي من جهة أخري، ونجد أن كلمة إسراء أخذت تدور مع المعاني المجازية والحقيقية ولكن ورودها مجازا أكثر من تعاملها مع الحقيقة فيما وقفنا عليه من شواهد، فعندما تستخدم في التعبير عن الخواطر تكون مجازا وعندما تستخدم عن بعض المحسوسات تكون مجازا تارة وحقيقة تارة أخري، وبإلقاء نظرة علي ما مضي يتبين لنا ذلك الأمر، ويبق أمامنا أن نقرر بأن الإسراء الذي تعارف عليه الأدباء في الجاهلية ليس كذلك الأدب الجديد من الإسراء الذي جاء به الإسلام، لأن الإسراء المفصَّل في القرآن الكريم في سورة الإسراء كان حقيقة ومعجزة للعرب وللبشرية كافة كما مر معنا.

لقد تحقق معني الإسراء حقيقة، فاليوم بات بمقدور الناس السفر جوا لقطع المسافة بين مكة والقدس في أقل من ساعة، فالإسراء كان وما زال حقيقة صالحة لكل زمان ومكان تسندها البراهين المادية الملموسة جسدا والمحسوسة عقلا.

نعم أن للنقد التقويمي طاقات كبيرة علي اختراق حواجز الزمن واختزال حقب التاريخ وتقريب المسافات للوقوف علي النماذج المختلفة لمقابلتها مع أخري لتسجيل الفوارق وابداء الملاحظات حول أوجه التشابه أو الاختلاف، ولكن عرب الجاهلية ليس لديهم المقدرة علي قطع المسافات التاريخية الشاسعة،فقد كان السقف الزمني الأعلى لذاكرة الزمان عندهم حوالى خمسمائة سنة ونيفا وهي فترة الانقطاع بينهم وبين آخر رسالة سماوية.

في خلاصة هذا البحثعنأدب الإسراء وبلاغته بين الماضي والحاضر،نجد أن العرب ليس لهم أصل مادي أو حسي أو معنوي يردون إليه مقارناتهم أو يشيرون إليه كمرجع محفوظ في أمر الإسراء، ولقد خلت ذاكرة التاريخ العربي الجاهلي من هذا النوع الأدبي، ونري أن الحشد الفكري الكبير الذي قابلوا به هذه الظاهرة كان هو السقف المعرفي الأعلى الذي ميزته عقولهم وفقا لما يحيط بهم من بيئتهم الصحراوية التي أتاحت لهم معرفة الإسراء بمعناه اللغوي والمجازي فعبَّروا به عن المعنويات والمحسوسات.

انتقل البحث لإيجاد تفسير موضوعي للإسراء لسد الفراغ الذهنيالذي عاشه العرب أمام الخارق الجديد(الإسراء)الذي تعاطي شئون الجن ذلك المخلوق الذي تعودت العرب عليتحميله كل خارقة تجاوزت عقولهم،ولكن الجن الذي تعول عليه العرب وقف عند حدوده في أمر الإسراء لأن معارضاتهم باءت بالفشل، ولم يبق إلا الانتقال والتدرج العلمي الموضوعي المنطقي عبر الاستدلالات التي تخاطب العقل البشري والجن معا، لإدراك هذه الظاهرة التي ملكت علي العرب عنان البراهين، فجاءت استدلالات الإسراء المسنودة من عند الله تعالي بالحجة المادية والعقلية التي بينها نبينا محمد صلي الله عليه مسلم، بما يؤكد معاني توحيد الربوبية والألوهية، ويدلل علي شمولية وعالمية الرسالة الإسلامية، بما يثبت محورية الأدب الإسلامي التي تدور حولها جميع الآداب بأسلوب علمي يديره الحوار العقلي المقارن بموجهات النقد البنَّاء.وقف البحث عند استخدامات

كلمة الإسراء لدي الثقافة العربية الجاهلية وما جد في استخدام اللفظ لاحقا، وكان مجال الكشف عن معاني تلك الكلمة ومشتقاتها الشعر العربي الجاهلي من جهة، والشعر العربي في العصور الإسلامية التالية وخاصة العصر الحديث من جهة أخري، ووجدنا أن استعمال ذلك اللفظ يكون معبِّرا عن خاطرة أو شعور شخصي بقيود محددة، وتارة يعبر عن موقف جماعي إجتماعي وهذا ما كان سمة مشتركة بين شعراء الجاهلية وشعراء العصر الحديث، وبهذا لم تقف حدود الدراسة عند اللفظ والمعني بل امتدت إلى المواقف المتماثلة.

احتوت الدراسة أدبيا على ماديات بيئة العرب في صحرائها وما تمثله وسائط النقل عندهم من أدب الرحلة والتجوال حول بادية الجزيرة العربية، والطفرات العلمية الحديثة وتطور أبحاث الفضاء علي وجه الخصوص، وذلك تمشيا مع مضامين الشعر العربي قديما وحديثا لاستلهام ما فيه من انطباعات مشتركة بين الماضي والحاضر، واستصحاب المتغيرات المادية الحسية والمعنوية الطارئة لما يمثله الحاضر من بدائل حية لماضي الجاهلية في بيئتها بتراكيبها الاجتماعية والثقافية والسياسية. وقفت الدراسة عند نقاط التلاقي الأدبي للإسراء في الجاهلية وما بعد الإسلام وخاصة عصرنا الحديث مسترشدين في ذلك بالدلائل التى أثبتت صدق الإسراء، من عجائب الإعجاز العلمي في غزو الفضاء وارتياد الآفاق والوصول إلى أطراف الدنيا في وقت وجيز، وكل ما هو مثبت في عصرنا الحديث من طفرات التقانة (التكنلوجيا) ممثلة في: مركبات الفضاء من الطائرات والأقمار الصناعية ومحطات التلفاز، وثورة الاتصالات اللاسلكية، وطرق التواصل عبر الشبكة العنكبوتية، ووسائل النقل البري والبحري، إن كل ذلك يوحي بما ظل راسخا في العقيدة الإسلامية من أمر ما أثبته القرآن والسنة في قصة الإسراء.

النتائج:

1. أدب الإسراء معجزة أعيت العالم بمادياتها المعنوية والمحسوسة ولا سبيل غير التصديق بها والانقياد إليها.
2. حمل ديوان العرب من أشعارهم معني الإسراء والمعراج مجازا وحقيقة.
3. أثبت العلم بمخترعاته الحديثة صدق الإسراء، بعد أن تجاوز حدود الزمان والمكان.
4. لا يمكن دراسة الإسراء كظاهرة كونية بمعزل عن المقارنة بالمخترعات الحديثة خاصة في مجال الفضاء.
5. ما أثبتته الدراسة من صدق الإسراء باعث حقيقي لزيادة الإيمان بالله ورسوله صلي الله عليه وسلم.

التوصيات:

1. إلقاء نظرات فاحصة لأدب الإسراء لاستنتاج المزيد من المعجزات المادية والمعنوية.
2. استقطاب عقول المفكرين من غير المسلمين بعرض ظاهرة الإسراء عرضا علميا للحوار والنقاش.

3. الاعتـداد بقصـة الإسراء في إثبـات نبـوة نبينـا محمـد صـلي اللـه عليـه وسـلم مـن اختصـار المسـافات وطـي الأبعـاد.
4. إعتبـار كل مـا جـد مـن التكنلوجيـا لـه أصـل في القـرآن الكريـم الـذي مـا زال متحديـا ومعجـزا وواعـدا بـكل مـا هـو عجيـب.
5. الاهتـمام بـالإسراء تمشـيا مـع التقـدم العلمـي في التواصـل بـرا وبحـرا وجـوا مـما جعـل العـالم قريــة واحدة.
6. إنشاء مركز علمي باسم الإسراء والمعراج يهتم بتخصصات الفضاء والخوارق العلمية.

الهوامش:

(1) سورة سبأ، الآية 28

(2) سورة الإسراء، الآية 1

(3) إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1420هـ - 1999 م، ج5، ص5.

(4) سورة الليل، الآية 4

(5) البغوي، تفسير البغوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، تحقيق: خالدعبد الرحمن العك، ج4:ص482

(6) عبد الملك بن هشام، السيرةالنبوية،شركةالطباعةالفنيةالمتحدة،ج1 ص396.

(7) مجموعة من رجال الفكر من الديانتين الإسلامية والنصرانية، مناظرة بين الإسلام والنصرانية، لمناقشة العقيدة الدينية، المملكة العربية السعودية، الرياض، الإدارة العامة للطبع والترجمة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة الثانية، 1413هـ ـ 1992م، ص326

(8) المهلهل بن ربيغة، الديوانج1/ص40

(9) المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي، المفضليات، دارالمعارف، القاهرة، الطبعة: السادسة،ج1/ص223.

(10) زيد بن الحسن بن زيد بن سعيد الحميري، خبر شعر ووفادة النابغة الجعدي، ج1/ص19

(11) سورة النور، الآية 43

(21) (الشماخ بن ضرار، الديوانج1/ص44

(13) أبو زيد القرشي، جمهرةأشعارالعرب،دارالأرقم، بيروت،تحقيق: عمر فاروق الطباع ج1/ص109

(14) ثابت بن جابر، الديوان ج1/ص25

(15) أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: علي مهنا وسمير جابرج 10/ص145.

(16) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف القاهرة، الطبعة 28، 2008م، صفحة 375.

(17) مجلة ناشونال جيوغرافيك 2012م.

(18) ابن المعتز، الديوانج1/ص840

(19) السريالرفاء الديوانج1/ص288

(20) البارودي، الديوان

(21) ادريس محمد جماع، الديوان

(22) أبومحمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1413هـ 1993م، ج3/ص148

(23) أحمد شوقي، الديوان.